الاعتدال والوسطية
في التاريخ الإسلامي والتراث الفقهي

د. يوسف جمعة سلامة (*)

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين محمد ﷺ، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، ومن اقتفى أثرهم وسار على دربهم إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن ديننا الإسلامي الحنيف دين عالمي يدعو إلى عقيدة سمحة، وعبادة مُيَسَّرة لا حرج فيها ولا مشقة، كما يدعو إلى التيسير وعدم التعسير، وإلى الرفق وعدم الحرج، فالرحمة جوهر رسالته، والوسطية عنوان دعوته، وهي تعنى الاعتدال في الأمور كلّها دون إفراط أو تفريط.

ومن المعلوم أن الاعتدال والتوسط مطلوب منّا في جميع مناحي الحياة؛ حتى نعيش حياة كريمة كما أرادها الله سبحانه وتعالى لنا، فالتشدّد والغلوّ يُسيءُ إلى أصحابه وإلى المجتمع وإلى الأمّة كلّها، وحتى ننهض بحال الأمّة يجب علينا الاعتدال والتوسُّط في الأمور كلّها، وهذا أمرٌ منوط بحملة الدعوة والرِّسالة، لأنهم يستطيعون أن ينشروا الوعي بين المسلمين، وهذه هي مهمّتهم في مواجهة الغلوّ الفكري والانحراف العَقَدِي بالحوار البنَّاء الذي يُرَسِّخ خيريّة الأمة ويذكِّر بوسطيّتها؛ لذلك فإن الواجب عليهم أن يتواصلوا مع شريحة الشباب لتوعيتهم وتعليمهم رسالة الإسلام الحقيقية بكلّ شفافية ووضوح، حتى يكونوا مُحَصَّنين من كل فكر دخيل هدفه إسقاط هويتهم الإسلامية وغرس الفكر المنحرف في عقولهم؛ لأن أعداء الأمة يسعون بكل الطرق لاختراق عقول الشباب؛ للنيل من رسالة

(*) دكتوراه في العلوم الإسلامية – قسم الدراسات الإسلامية – جامعة الأزهر بغزة.

الإسلام السمحة والتشكيك في العقيدة الإسلامية وتشويه صورة الدين الإسلامي في عقولهم.

لقد خصّ الله سبحانه وتعالى الأمة الإسلامية بميزتين، وهما :

الخيرية: فهي خير الأمم ما اعتصمت بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ كما جاء في قوله سبحانه وتعالى:﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (١).

الوسطية: والوسطية هنا ليست النقطة بين طرفين، لكنها الخيار والأفضل، كما جاء في قوله سبحانه وتعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾(٢)، ومما يؤكد هذا المعنى قوله تعالى في سورة القلم:﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ (٣) ومعناها قال خيارهم، وفي الحديث:(**الْفِرْدَوْسُ أَعْلَى الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُهَا**)(٤)، أي خيرها وأفضلها.

إنَّ العالم اليوم يُعَاني من موجات الغُلُوّ والتَّشدّد التي ألقت بظلالها على كثيرٍ من دول العالم؛ لذلك جاء هذا البحث للتأكيد على أنّ ديننا الإسلامي الحنيف يدعو إلى الاعتدال والوسطية، ويرفض الغُلُوَّ والتَّشدّد، فإبراز خصائص الإسلام وعلى رأسها الاعتدال والوسطية أمرٌ في غاية الأهمية، ونحن نرى أعداءه يرمونه بما ليس فيه من تطرّف وإرهاب وإقصاء للآخرين وبثٍّ للكراهية والتّعصب.

---

(١) آل عمران: ١١٠.

(٢) البقرة : ١٤٣.

(٣) القلم:٢٨.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه ٢٥٦/٤، ح٢٥٣٠.

لذلك فإنّ الأمة الإسلامية اليوم في أَمَسِّ الحاجة إلى الرجوع إلى كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ وتطبيق أوامره وتعاليمه، والالتزام بالمنهج الوسطي في كلّ شيء.

أولاً: أهمية الموضوع :

تبرز أهمية الموضوع من خلال عدة نقاط، أذكر أهمها فيما يأتي:

١- تنبع أهمية البحث من أهمية الموضوع الذي يناقشه؛ ذلك أن تحقيق مبدأ الوسطية يُعَدّ ضرورة لازمة في كل زمان ومكان.

٢- الحاجة الماسة لمنهج الوسطية، خصوصاً في الآونة الأخيرة، وانتشار مظاهر الغُلُوّ والتطرف والعنف.

٣- نشر ثقافة الوسطية والاعتدال بين الناس؛ لأنها سمة أساسية من سمات المنهج القرآني، والمنهج النبوي.

ثانياً: أسباب اختيار الموضوع:

دفعني لاختيار هذا الموضوع عدة أسباب، أذكر أهمها فيما يأتي:

١- التأكيد على أن الوسطية هي السمة الأساسية للشريعة الإسلامية.

٢- مَثَّلَتْ أهمية الموضوع سبباً مهماً لاختياره.

٣- إثراء المكتبة الإسلامية بدراسة علمية محكمة.

ثالثاً: مشكلة الدراسة:

يمكن تحديد مشكلة الدراسة من خلال الإجابة عن عدة تساؤلات منها:

١- ما مفهوم الوسطية والاعتدال؟

٢- ما أدلة مشروعية الوسطية من القرآن الكريم والسنة النبوية؟

٣- ما مظاهر الاعتدال والوسطية في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح حتى وقتنا الحاضر؟

٤- ما مظاهر الاعتدال والوسطية في الفقه والأحكام الشرعية؟

رابعاً: أهداف الدراسة والغاية منها:

للدراسة أهداف وغايات، أذكر أهمها فيما يأتي:

١- توضيح مفهوم الوسطية والاعتدال، وتمييزه عن المُغالاة والتطرف.
٢- بيان مشروعية الوسطية من القرآن الكريم والسنة النبوية.
٣- التعرف على المجالات والنماذج القرآنية والنبوية التطبيقية للاعتدال والوسطية.
٤- إبراز مظاهر الوسطية في القرآن الكريم والسنة النبوية والسلف الصالح، من خلال التطرق إلى آراء العلماء في الوسطية وأهميتها.
٥- معرفة أهمية منهج الوسطية والاعتدال في حياة الفرد والمجتمع، ومدى تأثير غياب هذا المنهج.

خامساً: الدراسات السابقة:

لقد اعتنى العلماء بموضوع الوسطية اعتناءً كبيراً من خلال شرح الآيات التي جاءت في الموضوع في كتب التفسير وشرح الأحاديث ذات الصلة، وبعد البحث والتنقيب في الجهود السابقة للباحثين، لم أجد عنواناً مطابقاً لهذا البحث، أو دراسة قد تناولت هذا الموضوع بهذا الكيف، فَمِمَّا يُميز البحث بيان المظاهر التي تعكس الوسطية الإسلامية منذ عصر الرسول ﷺ مروراً بعصر الصحابة والتابعين – رضي الله عنهم أجمعين- إلى وقتنا الحاضر، وبيان مظاهر الوسطية في تراثنا الفقهي.

سادساً: منهج البحث:

اعتمد الباحث في هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي.

سابعاً: هيكلية الدراسة:

اقتضت طبيعة الدراسة أن تكون الهيكلية مشتملة على مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة، موزعة على النحو الآتي:

المقدمة، وتشتمل على: أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وأهداف الدراسة، ومشكلة الدراسة ، والدراسات السابقة، ومنهج الباحث، وهيكلية الدراسة.

المبحث الأول: تعريف الاعتدال والوسطية

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف الاعتدال لغة واصطلاحاً.

المطلب الثاني: تعريف الوسطية لغة واصطلاحاً.

المطلب الثالث: الاعتدال والوسطية صفة هذه الأمة.

المبحث الثاني: الاعتدال والوسطية في التاريخ الإسلامي

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول : مظاهر الاعتدال والوسطية في عهد الرسولﷺ.

المطلب الثاني : مظاهر الاعتدال والوسطية عند السلف الصالح.

المطلب الثالث : مظاهر الاعتدال والوسطية في عصر الدولة الأموية.

المطلب الرابع : مظاهر الاعتدال والوسطية في عصر الدولة العباسية.

المطلب الخامس: مظاهر الاعتدال والوسطية في العصر الحاضر.

المبحث الثالث: الاعتدال والوسطية في التراث الفقهي

وفيه مطلبان:

المطلب الأول : وسطية الأحكام الشرعية في القرآن الكريم.

المطلب الثاني : وسطية الأحكام الشرعية في السنة النبوية.

الخاتمة: وتتضمن أهم النتائج والتوصيات.

المبحث الأول

تعريف الاعتدال والوسطية

المطلب الأول: تعريف الاعتدال لغة واصطلاحاً:

الاعتدال لغةً: الاعتدال من العَدْل، والعَدْل ضدّ الجَوْر، وهو ما قام في النفوس أنه مستقيم، والاعتدال: تَوَسُّط حال بين حالين في كمٍّ أو كيف(١).

الاعتدال اصطلاحاً: هو التزام المنهج العَدْل الأقوم، والحقّ الذي هو وَسَطٌ بين الغلوِّ والتَّنَطُّع، وبين التفريط والتقصير، فالاعتدال والاستقامة وَسَطٌ بين طرفين، هما: الإفراط والتفريط(٢).

المطلب الثاني: تعريف الوسطية لغة واصطلاحاً:

الوسطية لغةً: إنّ كلمة (الوسطية) بناءٌ لغويٌّ صحيحٌ يدل على معانٍ عدّة متقاربة في مدلولها كما ذكر ذلك أئمّة اللغة، يقول ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: "الواو والسّين والطّاء: بناءٌ صحيحٌ يدلُّ على العدل، والنِّصف، وأعدلُ الشيء أوسَطُهُ وَوَسَطُه..."(٣)، وكلمة (وسط) ضُبطت لغةً على وجهين، وهما: (وَسْط) بتسكين السّين، و(وَسَط) بتحريكها، ولكُلٍّ منهما معناه الذي يدل عليه، وذلك على النحو الآتي:

١- **وَسْط:** بسكون السّين، فتكون ظرفاً بمعنى (بَيْن)، قال ابن منظور في معجم لسان العرب: (وأما الوسْط بسكون السين فهو ظرفٌ لا اسم، جاء على وزن نظيره في المعنى وهو (بَيْن)، نقول: جلست وسْط القوم أي بينهم...)(٤).

---

(١) انظر: لسان العرب لابن منظور (فصل العين، مادة عدل)، ٤٣٠/١١، والقاموس المحيط (فصل العين، مادة عدل)، ١٣٣١/١.

(٢) انظر: بدائع السلك في طبائع الملك لابن حزم، ص٤٥٣.

(٣) مقاييس اللغة ، لأحمد بن فارس ١٠٨/٦.

(٤) انظر: لسان العرب لابن منظور ٢٩٤/١٥.

٢- **وَسَط:** بتحريك السّين، وعلى هذا الضبط تأتي لمعانٍ عديدة متقاربة، فتأتي:

أ- اسماً لما بين طرفي الشيء وهو منه، فنقول: قبضتُ وَسَطَ الحبل، وكسرتُ وَسَطَ القوس، وجلستُ وَسَطَ الدار[١].

ب- صفةً بمعنى: (خيار وأفضل وأجود)، فأوسط الشيء أفضله وخياره وأجودُه، ومنه المرعى الوَسَط، أي: المحل الأفضل من طرفيه، ورجلٌ وسَطٌ أو وسيطٌ أي: أوسطهم نسباً وأرفعهم مجداً[٢]، وهم وَسَطٌ في قومهم، أي: خيارٌ فيهم، ومنه: واسطة القلادة، التي هي الدّرّة التي في وَسَطِهَا، وهي أَنفسُ خرزها تُجمِّلها وتُزيِّنها[٣].

جـ- بمعنى (عدل أو أعدل)، فوسَطُ الشيء وأوسَطُه أعدله، والوَسَطُ بالتحريك: من كُلِّ شيء أعدله[٤].

د- بمعنى الشيء المعتدل بين الجيِّد والرَّديء، فالوَسَط هنا: الشيء المعتدل الواقع بين بين، يقول الجوهري في الصحاح: ويُقال أيضا (شيء وَسَطٌ) أي: بين الجيِّد والرَّديء[٥]، وقال الفيومي في المصباح المنير: (الوسَطُ بالتحريك: المعتدل، يُقال: شيء وَسَط، أي: بين الجيِّد والرّديء"[٦].

الوسطية اصطلاحاً: لقد كتب كثيرٌ من العلماء والباحثين عن الوَسَطية في الإسلام إلا أنني لم أقف على تعريف محدد لمصطلح الوسطية؛ حيث اكتفت كتاباتهم بوصف الوَسَطية في الإسلام، ونَقْل أقوال المفسرين في ذلك.

---

(١) المصدر السابق ٤٢٧/٧.

(٢) المصدر السابق ٢٩٦/١٥

(٣) انظر: الصّحاح لإسماعيل الجوهري: ١١٦٧/٦.

(٤) انظر: المصدر السابق ١١٦٧/٦.

(٥) انظر: الصحاح للجوهري ١١٦٧/٦.

(٦) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير لأحمد بن محمد بن علي الفيومي ١٩٤/٢.

والمراد بالوسطية في المعنى الاصطلاحي: (التوازن والتعادل بين الطرفين، بحيث لا يطغى طرف على آخر، فلا إفراط ولا تفريط، ولا غلوّ ولا تقصير، وإنما اتباع للأفضل والأعدل والأجود والأكمل)[١].

وقد عرّفها عبد الله بن سليمان الغفيلي بقوله: (الوَسَطية في الشرع تعني الاعتدال والتوازن بين أمرين أو طرفين بين إفراط وتفريط، أو غلُوٍّ وتقصير، وهذه الوَسَطية إذن هي العدل الطريق الأوسط الذي تجتمع عنده الفضيلة)[٢].

فالوَسَطية يُعبَّر عنها أيضاً بالتوازن، ويُقَصَدُ بها التعادل بين طرفين متقابلين، أو متضادين بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير، ويطرد الطرف المقابل، فلا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه، ويطغي على مقابله ويحيف عليه[٣].

ونخلص إلى القول بأن الوسطية هي: التوازن والتعادل بين طرفين، فلا نميل إلى طرف دون آخر، بحيث لا يغلب أحد الطرفين على الآخر، فلا غلوّ ولا تقصير، ولا إفراط ولا تفريط، فالوسطية الإسلامية عدل وتوازن بين تطرف المغالاة وتطرف الانحلال، وكلا التطرفين مُدان في الإسلام، وهي المنهج الرباني الذي ارتضاه الله –سبحانه وتعالى– للأمة الإسلامية، فهي بفضل الله –عزَّ وجلَّ– أمة وَسَط باعتدالها واستقامتها على الأخلاق والقيم التي بثَّها فيها الإسلام؛ لتبتعد بها عن الإفراط والتفريط، وما يتبع ذلك من غلوٍّ أو تقصير.

المطلب الثالث: الاعتدال والوسطية صفة هذه الأمة:

الوسطية والاعتدال صفتان محبوبتان يتكرم بهما الله تعالى على من يشاء من عباده، وشاءت عنايته سبحانه وتعالى أن يجعلها من حظِّ أمة سيدنا محمد

(١) وسطية الإسلام، د. أحمد عمر هاشم، ص٧ .
(٢) انظر: الوسطية في الإسلام، وأثرها في الوقاية من الجريمة ، الدكتور عبد العزيز عثمان شيخ محمد، ص١٢.
(٣) انظر: مفاهيم إسلامية، مجموعة من المؤلفين ، منشورات وزارة الأوقاف المصرية سنة ٢٠٠٨، ص٢٥.

صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين، وصاحب الرسالة الخاتمة التي جمعت كل خصال الخير وما ينفع الناس ويوصلهم لسعادة الدنيا والآخرة.

ووسطية هذه الأمة مستمدة من وسطية منهجها ونظامها، فهو منهج وسط لأمة وسط، منهج الاعتدال والتوازن، فلا إفراط ولا تفريط، ولا غلوّ ولا تقصير.

وقد وصف الله سبحانه وتعالى الأمة الإسلامية في القرآن الكريم بأنها الأمة الوسط، كما جاء في قوله سبحانه وتعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾[1].

إذن فالوسطية تعني مسؤولية، هي مسؤولية الشهادة على الناس، ولا بُدَّ للشاهد أن يكون حاضراً، فلا بُدَّ أن يكون للأمة حضور، هذا الحضور هو مكانها الأسمى، هو تفوقها على مَنْ عَدَاهَا من الأمم.

ونذكر هنا بعض أقوال المفسرين في تفسير هذه الآية الكريمة:

١- قال ابن كثير في تفسير الآية: (﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾ يقول تعالى: إنما حَوَّلناكم إلى قبلة إبراهيم عليه السلام، واخترناها لكم لنجعلكم خيار الأمم لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم؛ لأن الجميع معترفون لكم بالفضل، والوسط ههنا: الخيار، والأجود كما يُقال: قريش أوسط العرب نسباً وداراً، أي خيرها، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وسطاً في قومه، أي أشرفهم نسباً، ومنه الصلاة الوسطى التي هي أفضل الصلوات وهي العصر، كما ثبت في الصِّحاح وغيرها: ولمَّا جعل الله هذه الأمة وسطاً، خَصَّها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب، كما قال تعالى:﴿ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ

(١) البقرة :١٤٣.

فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾)[1].

٢- **قال الشوكاني في تفسير الآية: ({وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ})** أي مثل ذلك الجعل جعلناكم؛ قيل معناه: وكما أن الكعبة وسط الأرض كذلك جعلناكم أمة وسطا. والوسط الخيار أو العدل، والآية محتملة للأمرين،... ولمّا كان الوسط مُجَانباً للغلوّ والتقصير كان محموداً: أي هذه الأمة لم تغل غُلوَّ النصارى في عيسى، ولا قصَّروا تقصير اليهود في أنبيائهم، وَيُقال فلان أوسط قومه وواسطتهم: أي خيرهم)[2].

٣- **قال القرطبي في تفسير الآية: ({وَكَذَٰلِك جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا })**

المعنى: وكما أن الكعبة وسط الأرض كذلك جعلناكم أمة وسطاً؛ أي جعلناكم دون الأنبياء وفوق الأمم. والوسط: العَدْل؛ وأصل هذا أن أحمدَ الأشياء أوسطها... قال علماؤنا: أنبأنا ربنا – تبارك وتعالى – في كتابه بما أنعم علينا من تفضيله لنا باسم العدالة وَتَوْلِيَةِ خطير الشهادة على جميع خلقه، فجعلنا أَوَّلاً مكاناً وإن كُنَّا آخِراً زماناً؛ كما قال- عليه السلام –: "نحن الآخِرون الأولون". وهذا دليل على أنه لا يشهد إلا العدول، ولا ينفذ قول الغير على الغير إلا أن يكون عدلاً)[3].

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٢٦٠-٢٦١.

(٢) فتح القدير للشوكاني ١/١٩٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي٢/١٥٣-١٥٦.

٤- **قال ابن عطية الأندلسي في تفسير الآية: ({وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا } أي كما هديناكم إلى قبلة إبراهيم وشريعته كذلك جعلناكم أمة وسطا، ... "ووسطا" معناه عدولاً، ... والوسط الخيار والأعلى من الشيء، كما تقول وسط القوم، وواسطة القلادة أنفس حجر فيها، ... قال بعض العلماء: أمة محمد صلى الله عليه وسلم لم تغلُ في الدين كما فعلت اليهود، ولا افترت كالنصارى، فهي متوسطة، فهي أعلاها وخيرها من هذه الجهة، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: "**خَيْرُ الأُمُورِ أَوْسَاطُهَا**" أي خيارها، وقد يكون العلوّ والخير في الشيء لِمَا بأنه أنفس جنسه، وإما أن يكون بين الإفراط والتقصير فهو خيار من هذه الجهة، و "شهداء" جمع شاهد في هذا الموضع)[١].

٥- **قال البيضاوي في تفسير الآية: ({وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا }، {وَكَذَٰلِكَ} إشارة إلى مفهوم الآية المتقدمة، أي كما جعلناكم مهديين إلى الصراط المستقيم أو جعلنا قبلتكم أفضل القِبَل {جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} أي: خياراً أو عدولاً مزكين بالعلم والعمل)[٢].

٦- **قال ابن عاشور في تفسير الآية:** (والآية ثناء على المسلمين بأن الله قد ادخر لهم الفضل وجعلهم وَسَطا بما هَيَّأ لهم من أسبابه في بيان الشريعة بياناً جعل أذهان أتباعها سالمة من أن تُرَوَّج عليهم الضلالات التي راجت على الأمم، قال فخر الدين: يجوز أن يكونوا وسطاً بمعنى أنهم متوسطون في الدين بين المُفْرِط والمُفْرَط والغالي والمقصِّر؛ لأنهم لم يغلوا كما غلت النصارى فجعلوا المسيح ابن الله، ولم يقصِّروا كما قصَّرت اليهود فبدلوا الكتب واستخفوا بالرسل،...

---

(١) المُحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ٣/٢-٤.

(٢) تفسير البيضاوي ١٩٥/١.

أخبرت الآية أن الله تعالى جعل هذه الأمة وسطاً، وعلمنا أن الوسط هو الخيار العدل الخارج من بين طرفي إفراط وتفريط، علمنا أن الله تعالى أكمَلَ عقولَ هذه الأمة بما تنشأ عليه عقولهم من الاعتياد بالعقائد الصحيحة ومجانبة الأوهام السخيفة التي ساخت فيها عقول الأمم)[1].

٧- **قال الطبري في تفسير الآية: (﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾** كما هَدَيْناكُم أيها المؤمنون بِمُحَمَّد عليه الصّلاة والسّلام، وبما جاءكُم به من عند الله، فَخَصَصْناكُم بالتوفيق لِقِبْلة إبراهيم ومِلَّته، وفَضَّلناكم بذلك على مَنْ سِواكُم من أهل المِلَل؛ كذلك خَصَصْناكُم أيضًا ففَضَّلناكُم على غيركم من أهل الأديان بأن جعلناكم أمة وسطاً، ... وأمَّا (الوسَط) فإنه في كلام العرب: الخيار، يُقال منه: فلان واسِطُ الحَسَب في قومه: أي مُتَوَسِّط الحَسَب، إذا أرادوا بذلك الرّفْع في حسبه، ... قال أبو جعفر: وأنا أرَى أنَّ الوسَط في هذا الموضع هو الوسَط الذي بمعنى الجزء الذي هو بين الطَّرَفَيْن، مثل (وسَط الدَّار)، مُحرَّكةُ الوسَط مُثَقَّلتُه، غير جائز في سينه التّخفيف. وأرى أنَّ الله تبارك وتعالى إنما وصفهم بأنهم وسَط لتوسُّطهم في الدين؛ فلا هم أهل غُلوٍّ فيه غُلوّ النصارى الذين غلوا بالتَّرَهُّب وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تَقْصير فيه تَقْصير اليهود الذين بدَّلوا كتاب الله وقتلوا أنبياءهم وكَذَبوا على رَبِّهم وكفروا به؛ ولكِنَّهم أهل تَوَسُّط واعْتِدال فيه، فَوَصَفَهم الله بذلك؛ إذْ كان أحَبّ الأمور إلى الله أوسَطها. وأمّا التأويل فإنه جاء بأنّ الوسَط العدل، وذلك هو معنى الخيار لأنّ الخيار من الناس عُدولهم)[2].

٨- **قال طنطاوي في تفسير الآية: (**ثم وصف الله – تعالى– الأمة الإسلامية، بأنها أمة خيرة عادلة مُزَكَّاة بالعلم والعمل فقال تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ**

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ١٨/٢-١٩.

(٢) تفسير الطبري للإمام الطبري ٨٣١/١-٨٣٢.

جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾.

والمعنى: ومثل ما جعلنا قبلتكم – أيها المسلمون– وَسَطاً لأنها البيت الحرام الذي هو المثابة للناس، والأمن لهم، جعلناكم –أيضاً– **{أُمَّةً وَسَطًا}** أي: خياراً عدولاً بين الأمم ليتحقق التناسب بينكم وبين القبلة التي تتوجهون إليها في صلواتكم، تشهدون على الأمم السابقة بأن أنبياءهم قد بلغوهم الرسالة، ونصحوهم بما ينفعهم، ولكي يشهد الرسول صلى الله عليه وسلم عليكم بأنكم صدقتموه وآمنتم به)[1].

كما نذكر بعض الأحاديث النبوية التي تؤكد أَنَّ سِمَة الإسلام الاعتدال والوسطية:

١– قال رسولُ اللهﷺ: **(يُدْعَى نوحٌ يومَ القيامَةِ، فيقولُ: لبَّيك سَعْدَيك يا ربِّ، فيَقولُ: هل بلَّغتَ؟ فيقولُ: نعَم، فيُقالُ لأمَّتِه: هل بلَّغَكم؟ فيَقولون: ما أتانا مِن نَذيرٍ، فيقولُ : مَن يَشهَدُ لك؟ فيقولُ: محمَّدٌ وأمَّتُه، فيَشهَدون أنَّه قدْ بَلَّغ ﴿ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا ﴾** [البقرة: ١٤٣]**؛ فذلك قولُه جلَّ ذِكرُه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾** [البقرة: ١٤٣]**، والوسَطُ: العدْلُ)**[2].

وبهذه الوسطية استحقت هذه الأمة أن تكون شهيدة على الناس من حيث لا تشهد عليها أمة أخرى.

---

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم للدكتور/ محمد سيد طنطاوي ٢٩٦/١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ١٣٤/٤، ح ٣٣٣٩.

٢- عن أبي هريرة – رضي الله عنه- قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **(اللَّهمَّ أَصْلِحْ لي دِيني الَّذي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ التي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لي آخِرَتي الَّتي فِيها معادي، وَاجْعلِ الحيَاةَ زِيادَةً لي في كُلِّ خَيْرٍ ، وَاجْعَلِ الموتَ راحَةً لي مِنْ كُلِّ شَرٍ)**[١].

هذا الحديث النبوي يُعَدُّ من جوامع الكلم التي تميز بها رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، فقد جمع – عليه الصلاة والسلام- في هذا الدعاء صَلاَحَ الدينِ والدنيا والمعاد، وهي أصول مكارم الأخلاق؛ حيث حثَّنا – عليه الصلاة والسلام- على التوازن بين هذه الأمور وألا يطغى أحدها على الآخر، وذلك مصداقاً لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ **رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ** ﴾ [٢]، وهنا تبدو الوسطية في أبهى صورها بعيداً عن التشدّد أو الإفراط والتفريط.

٣- عن عائشة – رضي الله عنها – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا وَلا مُتَعَنِّتًا، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا)**[٣].

جاء في كتاب التنوير شرح الجامع الصغير: **("إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا"** هو من عنته تعنيتاً شدّد عليه وألزمه ما يصعب عليه أداؤه، **"وَلا مُتَعَنِّتًا"** يُقال: جاءه مُتعنتاً، أي طالباً زلته، فالمعنى أن الله تعالى لم يبعثني مُشدّدًا على الغير مُلزمًا له ما يصعب عليه أداؤه ولا طالب لزلته، **"وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا"** من اليسر، ولذا كان يقول: **يَسِّرُوا وَلا تُعَسِّرُوا)**[٤].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/ ٢٠٨٧، ح ٢٧٢٠.

(٢) البقرة :٢٠١.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ٢/ ١١٠٤، ح ١٤٧٨.

(٤) التنوير شرح الجامع الصغير لمحمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني ٣٣٣/٣ .

وفي هذا الحديث دلالة واضحة على أن التيسير والقصد شأن الإسلام في الأمور كلها.

يتأكد لنا من خلال أقوال المفسِّرين في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾، وكذلك شرح بعض الأحاديث النبوية السابقة أَنَّ وسطية الدين الإسلامي الحنيف تعني الخيرية والعدل، وأَنَّ أمة محمد صلى الله عليه وسلم أولى الأمم بهذه الوسطية فهي خير الأمم كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾، ولذلك أكرمها الله سبحانه وتعالى بأن جعلها أمة وسطا – أي خير الأمم وأفضلها–، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾.

والمتأمل في الدين الإسلامي الحنيف يجد أن الاعتدال والتوازن والتوسط من الخصائص المهمة التي تميزت بها الأمة الإسلامية في دينها ومعتقداتها وعباداتها ومعاملاتها؛ حيث إنها خير الأمم تأخذ بالاعتدال والتوازن والتوسُّط بعيداً عن الإفراط والغلو، والتفريط والتقصير.

ومن هنا يتضح أن وسطية الأمة الإسلامية من أبرز صفاتها وأهمّ ما يميزها عن غيرها من الأمم، وأنها استحقت هذه الصفة باعتدالها واستقامتها على القيم والأخلاق والتزامها بالطريق المستقيم والمنهج الوسط بين الإفراط والتفريط، ورحم الله القائل:

نَحْنُ نَوُمُّ النَّمَطَ الأَوْسَطَا لَسْنَا كَمَنْ قَصَّرَ أَوْ فرَّطَا

فنحن أمة وسط، لا إفراط ولا تفريط، وعلينا أن نبقى دائماً أمة الوسط؛ لنكون خير أمة أُخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله.

**

المبحث الثاني

الاعتدال والوسطية في التاريخ الإسلامي

لقد تميزت الأمة الإسلامية بِسِمَةِ الاعتدال والوسطية، هذه السمة المهمة التي تنفرد وتُعرف بها الأمة الإسلامية بين الأمم، كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾ (١).

ولقد لازمت سمة الاعتدال والوسطية المجتمع الإسلامي منذ بزوغ فجر الإسلام مروراً بعصوره المختلفة، وإذا كان التاريخ الإسلامي قد شهد بعضاً من حالات الغلوّ والإفراط أو التفريط، فإن أمر الأمة الإسلامية في غالبه قد استقر على الاعتدال والتوسُّط في جميع مجالات الحياة العقدية والفقهية والفكرية والسلوكية والسياسية وفي العلاقة بغير المسلمين.

فالوسطية تقوم على إحياء الفهم الصحيح للدين وأحكامه ونظامه، وتسعى إلى تجديد معانيه في عقول المسلمين ونفوسهم وواقعهم، موصولاً في ذلك بما أقرته أصول الإسلام ومصادره الأساسية، وبما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة الكرام – رضي الله عنهم أجمعين– والسلف الصالح والمجددون الذين توالوا عبر الأجيال.

لقد عمد أعداء الإسلام لتقديم أدلة على تطرُّف الإسلام وغلوه، فقاموا بتشويه كثير من أحداث التاريخ الإسلامي، ومن هنا جاء هذا البحث لتأكيد وجه الحق في وسطية الإسلام واعتداله عبر مراحل التاريخ الإسلامي المختلفة، بدءاً من عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة الكرام – رضي الله عنهم أجمعين– ومن تبعهم من التابعيين وأتباع التابعين إلى عصرنا الحالي.

---

(١) البقرة : ١٤٣.

وإن كان البحث لا يستطيع تغطية كل القضايا التي تبين مظاهر الاعتدال والوسطية في الإسلام عبر مختلف العصور، وهو أمرٌ فوق طاقته، وليس من أهدافه، فقد قمتُ بتسليط الضوء على وسطية الإسلام مع غير المسلمين؛ لكثرة مَا يُثَار حولها من جدل واسع وشبهات كثيرة.

والتاريخ الإسلامي يزخر بالعديد من مظاهر الاعتدال والوسطية في جميع الأمور، بالإضافة إلى الاعتدال والوسطية والتسامح الذي عامل به المسلمون غيرهم في مختلف العصور، من عهد النبي صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح لهذه الأمة من الخلفاء والتابعين، مروراً بالعصر الأموي والعباسي وصولاً إلى عصرنا الحاضر، **ونوضح ذلك على النحو الآتى :**

المطلب الأول: مظاهر الاعتدال والوسطية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم:

لقد طبَّق النبي صلى الله عليه وسلم الوسطية في كل شئون حياته المختلفة مع المسلمين وغير المسلمين.

والنماذج التطبيقية لوسطية الرسول صلى الله عليه وسلم كثيرة ولا يمكن حصرها في هذا البحث، لذلك سأقوم بذكر بعض مظاهر الوسطية عند رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم التي شملت جميع جوانب الحياة مع المسلمين وغير المسلمين، **ومن هذه المظاهر ما يلي:**

* دعوة النبي صلى الله عليه وسلم إلى ترك الغلوّ، واتخاذ الوسطية منهجاً للحياة، كما جاء في الحديث عن ابْنِ عَبَّاسٍ – رضي الله عنهما –عَن النبيﷺ قال: (...وَ**إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ؛ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ**)[1].

(١) أخرجه النسائي في سننه ٥/ ٢٦٨، ح ٣٠٥٧، وابن ماجه في سننه ١٠٠٨/٢، ح ٣٠٢٩.

لقد بيَّن النبي صلى الله عليه وسلم أن مصير الغلوّ والتشدّد هو الهلاك، كما قال صلى الله عليه وسلم: (**"هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ**[1])، وقد علّق الإمام النووي على هذا فقال: (**"هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ"**) أي المتعمِّقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم)[2].

* نهيه صلى الله عليه وسلم عن التشدد كما ورد في حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: (**لا تُشَدِّدُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَيُشَدَّدَ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ قَوْمًا شَدَّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَشَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِمْ، فَتِلْكَ بَقَايَاهُمْ فِي الصَّوَامِعِ وَالدِّيَارَاتِ، "وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ"**)[3].

* قوله صلى الله عليه وسلم: (**لاَ تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا :عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ**)[4]، أي لا تتطرفوا في مديحي والثناء عليَّ فتتجاوزوا بي حدود البشرية، وقد قال الله سبحانه وتعالى:﴿ **قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ** ﴾[5].

* قوله صلى الله عليه وسلم: (**...وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً ثَلاثَ مَرَّاتٍ**)[6]، والمعنى ساعة للربِّ عزَّ وجلَّ، وساعة للأهل والأولاد، وساعة للنفس؛ حتى يُعْطِي الإنسان نفسه راحتها ويعطي ذوي الحقوق حقوقهم، وهذا من تمام وسطية الإسلام.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٢٠٥٥/٤، ح ٢٦٧٠.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ٤٣٨/٨.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه ٢٧٦/٤، ح ٤٩٠٤.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ١٦٧/٤، ح٣٤٤٥.

(٥) الكهف: ١١٠.

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه ٢١٠٦/٤، ح ٢٧٥٠.

* ممارسته صلى الله عليه وسلم الوسطية مع غير المسلمين، وقد ظهر ذلك جليًّا في دعوته صلى الله عليه وسلم للحفاظ على دماء غير المسلمين وأموالهم، فقد روى عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا)**[1].

قال ابن حجر: قوله صلى الله عليه وسلم: (من قتل معاهداً " المراد بالمعاهد: هو من له عهد مع المسلمين سواء أكان بعقد جزية أم هدنةٍ من سلطان أم أمان من مسلم"[2].

وما رواه عمرو بن الحَمِق الخزاعي – رضي الله عنه– قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **(مَنْ آمَنَ رَجُلا عَلَى دَمِهِ، فَقَتَلَهُ فَأَنَا بَرِيءٌ مِنَ الْقَاتِلِ، وَإِنْ كَانَ الْمَقْتُولُ كَافِرًا)**[3].

* حمايته صلى الله عليه وسلم لأموال أهل الذمة: حيث جاء في عهد النبي صلى الله عليه وسلم لأهل نجران قائلاً: (ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله صلى الله عليه وسلم على أموالهم وأنفسهم وأرضهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير لا يُغَيَّرُ أُسقُف من أسيقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهنته وليس عليه ذنبه، ولا دم جاهلية ولا يخسرون ولا يعسرون ولا يطأ أرضهم جيش، ومن سأل منهم حقاً فبينهم النَّصَفُ غير ظالمين ولا مظلومين)[4].

كانت هذه بعض المظاهر التي تُظهر نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن الغلوِّ والتشدُّد، وتطبيقه صلى الله عليه وسلم لمنهج الاعتدال والوسطية في مختلف شئون الحياة مع المسلمين وغيرهم.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٩٩/٤، ح ٣١٦٦.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر ٢٥٩/١٢.

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني ٣١٦/٤، ح ٢٣٤٣.

(٤) الخراج ، لأبي يوسف ص٨٥.

المطلب الثاني : مظاهر الاعتدال والوسطية عند السلف الصالح:

يُقصد بالسلف الصالح هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ"**[1]، هذه الأجيال ليست كسائر الأجيال، فقد استحقت بشهادة النبي صلى الله عليه وسلم أن يكونوا خير القرون، واقتداءُ الصحابة الكرام– رضي الله عنهم أجمعين– بالنبي صلى الله عليه وسلم سَطَّرَتْهَا كتب علماء الإسلام بصحة الأسانيد والمتون، وتناقلها الناس عبر القرون، وكان منهج السلف في الأمور كلها سواء أكانت الأمور اعتقادية أم منهجية أو سلوكية منهجاً وسطياً، وسطية تقوم على المنهج الإلهي، والجمع بين المادة والروح، والدنيا والآخرة، والأسرة والمجتمع، والحقوق والواجبات، والفرد والجماعة، والتوازن فيما بينهما بلا إفراط ولا تفريط، ولا ترجيح جانب من الجوانب على الآخر، **ومن هذه المظاهر ما يلي:**

*عناية الخلفاء الراشدين – رضي الله عنهم أجمعين– بدفع الظلم عن أهل الذمة، وكفِّ الأذى عنهم، والتحقيق في كل شكوى تأتي من قِبَلهم، فكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – يسأل الوافدين عليه من الأقاليم عن حال أهل الذمة، خشية أن يكون أحدٌ من المسلمين قد أفضى إليهم بأذى، فيقولون له: ما نعلم إلا وفاءً[2] أي مقتضى العهد والعقد الذي بينهم وبين المسلمين.

*رُوِيَ عَنْ أَبِي الْجَنُوبِ الأَسَدِيِّ قَالَ: **(أُتِيَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِرَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَتَلَ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ قَالَ: فَقَامَتْ عَلَيْهِ الْبَيِّنَةُ، فَأَمَرَ بِقَتْلِهِ، فَجَاءَ أَخُوهُ، فَقَالَ: إِنِّي قَدْ عَفَوْتُ، قَالَ: فَلَعَلَّهُمْ هَدَّدُوكَ وَفَزَّقُوكَ**

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ١٧١/٣، ح ٢٦٥٢.

(٢) انظر: تاريخ الرسل والملوك، أبو جعفر الطبري ٩٨/٤.

وَفْزَّعُوكَ، قَالَ: لا، وَلَكِنَّ قَتْلَهُ لا يَرُدُّ عَلَيَّ أَخِي وَعَوَّضُونِي فَرَضِيتُ، قَالَ: أَنْتَ أَعْلَمُ، مَنْ كَانَ لَهُ ذِمَّتُنَا فَدَمُهُ كَدَمِنَا، وَدِيَتُهُ كَدِيَتِنَا)[1].

*عن أبي بكرة – رضي الله عنه– قال: **(مَرَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– بِبَابِ قَوْمٍ وَعَلَيْهِ سَائِلٌ يَسْأَلُ: شَيْخٌ كَبِيرٌ ضَرِيرُ الْبَصَرِ، فَضَرَبَ عَضُدَهُ مِنْ خَلْفِهِ، وَقَالَ: مِنْ أَيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنْتَ؟ فَقَالَ: يَهُودِيٌّ، قَالَ: فَمَا أَلْجَأَكَ إِلَى مَا أَرَى؟ قَالَ: أَسْأَلُ الْجِزْيَةَ وَالْحَاجَةَ وَالسِّنَّ، قَالَ: فَأَخَذَ عُمَرُ بِيَدِهِ وَذَهَبَ بِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ فَرَضَخَ لَهُ بِشَيءٍ مِنَ الْمَنْزِلِ. ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى خَازِنِ بَيْتِ الْمَالِ، فَقَالَ: انْظُرْ هَذَا وَضُرَبَاءَهُ، فَوَاللَّهِ مَا أَنْصَفْنَاهُ أَنْ أَكَلْنَا شَبِيبَتَهُ ثُمَّ نَخْذُلُهُ عِنْدَ الْهَرَمِ{إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ} وَالْفُقَرَاءُ هُمُ الْمُسْلِمُونَ، وَهَذَا مِنَ الْمَسَاكِينِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَوَضَعَ عَنْهُ الْجِزْيَةَ وَعَنْ ضُرَبَائِهِ)**[2].

فلم يرضَ عمر بن الخطاب– رضي الله عنه– بمنع الإيذاء عن غير المسلمين من أبناء رعيته فقط، وإنما اقتضت وسطيته واعتداله معهم أن يُوجب لفقرائهم مصدر الرزق كما وجب على أثريائهم دفع الجزية.

* وقد ظهرت وسطية عمر بن الخطاب– رضي الله عنه– واضحة في رسالته إلى أهل إيلياء (القدس) فقد نصَّ على حريتهم الدينية، وحرمة معابدهم وشعائرهم: (هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا يسكن كنائسهم، ولا تهدم، ولا ينقص منها، ولا من خيرها، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء أحد من اليهود) [3].

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٦٢/٨، ح ١٥٩٣٤.

(٢) الخراج، لأبي يوسف ص١٣٩.

(٣) إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى للسيوطي١٧٥/٢-١٧٦.

* وكتب علي – رضي الله عنه– إلى بعض ولاته على الخراج : **(إِذَا قَدِمْتَ عَلَيْهِمْ فَلا تَبِيعَنَّ لَهُمْ كِسْوَةَ شِتَاء وَلا صَيْفاً، وَلا رِزْقًا يَأْكُلُونَهُ، وَلا دَابَّةً يَعْمَلُونَ عَلَيْهَا، وَلا تَضْرِبَنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ سَوْطًا وَاحِدًا فِي دِرْهَمٍ، وَلا تُقِمْهُ عَلَى رِجْلِهِ فِي طَلَبِ دِرْهَمٍ، وَلا تَبِعْ لأَحَدٍ مِنْهُمْ عَرَضًا (مَتَاعًا) فِي شَيْءٍ مِنَ الْخَرَاجِ، فَإِنَّا إِنَّمَا أُمِرْنَا أَنْ نَأْخُذَ مِنْهُمُ الْعَفْوَ ، فَإِنْ أَنْتَ خَالَفْتَ مَا أَمَرْتُكَ بِهِ يَأْخُذْكَ اللَّهُ بِهِ دُونِي، وَإِنْ بَلَغَنِي عَنْكَ خِلافَ ذَلِكَ عَزَلْتُكَ، قَالَ: قُلْتُ: إِذَنْ أَرْجِعُ إِلَيْكَ كَمَا خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِكَ: "يعني أن الناسَ لا يدفعونَ إلا بالشدّة"، قَالَ: وَإِنْ رَجَعْتَ كَمَا خَرَجْتَ، قَالَ: فَانْطَلَقْتُ فَعَمِلْتُ بِالَّذِي أَمَرَنِي بِهِ، فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَنْتَقِصْ مِنَ الْخَرَاجِ شَيْئًا)**[1].

* ما قاله خالد بن الوليد لأهل عانات: **(وَعَلَى أَنْ يَضْرِبُوا نَوَاقِيسَهُمْ فِي أَيِّ سَاعَةٍ شَاؤوا مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ، إِلا فِي أَوْقَاتِ الصَّلَوَاتِ، وَعَلَى أَنْ يُخْرِجُوا الصُّلْبَانَ فِي أَيَّامِ عِيدِهِمْ)**[2].

هذه بعض المظاهر التي توضح مدى معاملة الصحابة الكرام– رضي الله عنهم أجمعين– لغير المسلمين معاملة قائمة على العدل والاعتدال والوسطية في جميع الأمور، فلا يقع عليهم أدنى ظلم، وقد وجد غير المسلمين من أخلاق المسلمين وتسامحهم ومعاملتهم واعتدالهم ووسطيتهم ما يسرّهم.

المطلب الثالث : مظاهر الاعتدال والوسطية في عصر الدولة الأموية:

لقد اتخذ خلفاء الدولة الأموية الوسطية والاعتدال منهجاً لهم في سياسة دولتهم، وقد ظهر ذلك واضحاً في معاملاتهم مع المسلمين وغير المسلمين، يقول **(ول ديوارانت)** في كتاب قصة الحضارة : "لقد كان أهل الذمة يتمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نَجِدُ لها نظيراً في البلاد المسيحية في هذه الأيام"[3]، **ومن مظاهر ذلك:**

---

(١) الخراج، لأبي يوسف ص٢٥.
(٢) المصدر السابق ص١٥٩.
(٣) قصة الحضارة، ول ديوارانت ١٣٠/١٣.

* ما فعله أبان بن عثمان حين كان أميراً على المدينة **(أَنَّ رَجُلاً مِنْ النَّبَطِ[1] عَدَا عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، فَقَتَلَهُ قَتْلَ غِيلَةٍ، فَأُتِيَ بِهِ أَبَانَ بْنَ عُثْمَانَ وَهُوَ إِذْ ذَاكَ عَلَى الْمَدِينَةِ، فَأَمَرَ بِالْمُسْلِمِ الَّذِي قَتَلَ الذِّمِّيَّ أَنْ يُقْتَلَ)**[2].

* ما كتبه عمر بن عبد العزيز إلى بعض أمرائه في مُسْلِمٍ قتل ذمياً، فأمر أن يدفعه إلى وليه ، فإنْ شاءَ قتله، وإنْ شاءَ عَفَا عنه، فَدُفِعَ إليه فضربَ عُنَقَهَ[3].

* أجلى الوليدُ بن يزيد مَنْ كان بقبرص من الذميين، وأرسلهم إلى الشام مخافةَ حملةِ الروم، فغضبَ عليه الفقهاءُ وعامةُ المسلمين واستعظموا ذلك منه، فلماء جاء يزيدُ بنُ الوليد وردَّهم إلى قبرص استحسنه المسلمون، وعدوه من العدل وذكروه في مناقبه[4].

* ما كتبه عمر بن عبد العزيز لرجل سأله عن الْقَدَرِ، **(فَكَتَبَ: أَمَّا بَعْدُ، أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالاقْتِصَادِ فِي أَمْرِهِ، وَاتِّبَاعِ سُنَّةِ نَبِيِّهِﷺ، وَتَرْكِ مَا أَحْدَثَ الْمُحْدِثُونَ بَعْدَ مَا جَرَتْ بِهِ سُنَّتُهُ ،وَكُفُوا مُؤْنَتَهُ، فَعَلَيْكَ بِلُزُومِ السُّنَّةِ فَإِنَّهَا لَكَ – بِإِذْنِ اللَّهِ– عِصْمَةٌ)**[5].

وغير ذلك من الأمثلة كثير، والتي تؤكد اتباع المسلمين في الدولة الأموية لمنهج التسامح والوسطية مع غير المسلمين.

المطلب الرابع: مظاهر الاعتدال والوسطية في عصر الدولة العباسية:

لقد نهج معظم خلفاء الدولة العباسية منهج الوسطية في معاملاتهم لأمور الدولة مع المسلمين وغير المسلمين، **ومن مظاهر ذلك:**

---

(١) النبط: من أهل العراق، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٢٠٨/٤.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٤٠٩/٥، ح ٢٧٤٦٩.

(٣) الجوهر النقي على سنن البيهقي ٣٤/٨.

(٤) فتوح البلدان، أحمد البلاذري ص١٥٧.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه ٢٠٢/٤، ح ٤٦١٢.

* لقد تولى الوزارة في زمن العباسيين بعض النصارى أكثر من مرة، منهم: عيسى بن نسطورس[١].

*رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية إلى ملك قبرص أنموذجاً في الوسطية والاعتدال، والقدرة على المحاججة والإقناع، وكعادته جاءت رسالته مليئة بالاستشهادات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال السلف الصالح، ففي مقدمة رسالته سرد ابن تيمية لملك قبرص قصص الأنبياء، بدءاً من نبي الله إبراهيم إلى نبي الله عيسى –عليهم الصلاة والسلام–، والأساس الذي قامت عليه النبوة وهو توحيد الله سبحانه وتعالى، وتتجلى معاني الوسطية في الكلمات التي زوَّد بها ابن تيمية رسالته إلى ملك قبرص، ومنها على سبيل المثال قوله: (نحن قوم نُحِبُّ الخير لكل أحد، ونُحب أن يجمع الله لكم خير الدينا والآخرة؛ فإن أعظم ما عُبد الله به نصيحة خلقه)[٢].

كما كان لشيخ الإسلام دور في تحرير أسرى المسلمين من خان المغول، تطرق في رسالته إلى ملك قبرص إلى قضية الأسرى المسلمين لدى الصليبين، مذكراً إياه بتاريخ النصارى مع الرسول من خلال وفد نصارى نجران، ومعاملة النجاشي الحسنة للمسلمين خلال هجرتهم إلى الحبشة، قائلاً: (وأنا ما غرضي الساعة إلا مخاطبتكم بالتي هي أحسن، والمعاونة على النظر في العلم، واتباع الحق، وفعل ما يجب، فإن كان عند الملك مَنْ يثق بعقله ودينه فليبحث معه عن أصول العلم وحقائق الأديان)[٣].

وختم رسالته: (بتوصية ملك قبرص بأسرى المسلمين خيراً، والمساعدة لهم، والرفق بمن عندهم من أهل القرآن، والامتناع من تغيير دين واحد منهم، وسوف

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٥/١٦٨.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٨/٦١٥.

(٣) المصدر السابق٢٨/٦٢٤.

يرى الملك عاقبة ذلك كله. ونحن نجزي الملك على ذلك بأضعاف ما في نفسه. والله يعلم إني قاصد للملك الخير؛ لأن الله تعالى أمرنا بذلك، وشرع لنا أن نريد الخير لكل أحد، ونعطف على خلق الله، وندعوهم إلى الله، وإلى دينه، وندفع عنهم شياطين الإنس والجن.

والله المسئول أن يعين الملك على مصلحته التي هي عند الله المصلحة، وأن يُخير له من الأقوال ما هو خير له عند الله، ويختم له بخاتمة خير، والحمد لله رب العالمين، وصلواته على أنبيائه المرسلين، ولا سيما محمد خاتم النبيين والمرسلين، والسلام عليهم أجمعين)[١].

ولقد لخَّص القاسمي أقوال ابن تيمية فقال: قال ابن تيمية: (والفرقة الناجية أهل السنة، وهم وَسَطٌ في النِّحَل كما أنّ مِلَّةَ الإسلام وَسَطٌ في المِلَل، فالمسلمون وَسَطٌ في أنبياء الله ورسله وعباده الصالحين، لم يغلوا فيهم كما غلت في النصارى ولا جَفوا كما جفت اليهود)[٢].

*كما ظهرت الوسطية في موقف الإمام الأوزاعي من الوالي العباسي صالح بن علي بن عبد الله بن عباس عندما أجلى قوماً من أهل الذمة من جبل لبنان لخروج فريق منهم على عامل الخراج، وكان الوالي أحد أقارب الخليفة وعصبته فكتب إليه: (كيف تُؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يُخرجوا من ديارهم وأموالهم؟ وحكم الله تعالى: **{وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ}**، وقد قال رسول الله ﷺ: "**مَنْ ظَلَمَ ذِمِّيًّا أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ فَأَنَا حَجِيجُهُ...**" وهم ليسوا بعبيد، فتكون في حلٍّ من تحويلهم من بلد إلى بلد، ولكنهم أحرار أهل ذمة)[٣].

---

(١) المصدر السابق ٢٨/٦٢٩-٦٣٠.

(٢) محاسن التأويل ، محمد جمال الدين القاسمي ١/٤١٨.

(٣) انظر: فتوح البلدان للبلاذري ص ١٦٣، والأموال للقاسم بن سلام ص ٢٢٠.

*كما ظهرت الوسطية أيضاً عندما أمر الخليفة العباسي المنصور الإمام مالك أن يجمع الناس على الموطأ موصياً إياه: (يا أبا عبد الله، ضم هذا العلم، وَدَوِّن كُتباً، وجَنِّب فيها شدائد ابن عمر، ورُخَص ابن عباس، وشواذ ابن مسعود، واقصد أوسط الأمور وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة)[1].

وغير ذلك كثير من المظاهر التي تُؤكد التزام المسلمين بمنهج الاعتدال والوسطية عبر التاريخ، والتي لا يتسع المجال لذكرها في هذا البحث.

المطلب الخامس : مظاهر الاعتدال والوسطية في العصر الحاضر:

من المعلوم أن الوسطية تعني التوازن والاعتدال والعدل والخيار والأفضل، والوسطية لا يكون فيها إفراط وتشديد على النفس بتجاوز الأحكام الشرعية، ولا يكون فيها تفريط وتقصير واتباع للهوى، وإنما الاعتدال والتوسط بين هذا وذاك.

ويحرص المسلمون على الالتزام بمنهج الاعتدال والوسطية في العصر الحاضر اقتداءً بالرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة الكرام –رضي الله عنهم أجمعين– ومن تبعهم من التابعين وأتباعهم، وذلك في مختلف شئون حياتهم، في العبادات والمعاملات والأخلاق، وكذلك في معاملتهم لغير المسلمين بعيداً عن الإفراط والتفريط.

ولما كانت الوسطية سِمَة أكرم الله بها الأمة الإسلامية وَمَيَّزَهَا بها عن غيرها من الأمم كما جاء في قوله تعالى:﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا** ﴾ [2]، فإن الوسطية المعاصرة تعني الالتزام بكل ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية بلا إفراط ولا تفريط، واتباع هدي الشريعة الإسلامية السمحة بلا تطرف ولا انحراف؛ لإقامة العدل ونشر مبادئ الاعتدال والوسطية؛ ليأخذ كل ذي

---

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك ، للقاضي عياض ٧٣/٢.

(٢) البقرة: ١٤٣.

حق حقه، فحاضر الأمة الإسلامية لا ينفصل عن ماضيها المشرق الذي التزم منهج الاعتدال والوسطية في الأمور كلها، **وقد تعددت مظاهر الاعتدال والوسطية في العصر الحاضر، ومنها:**

- الاعتدال والوسطية في الدين الإسلامي (عقيدة وفقهاً وعبادات ومعاملات)، فلا تعارض بين الدين ومطالب الحياة ومتطلباتها، بل إن الشريعة الإسلامية تؤكد أنَّ الإنسان يؤجر على أدائه لمطالب حياته، فطلب العلم عبادة، والعمل عبادة، والسعي على الرزق وقوت الزوجة والأبناء عبادة.

- الاعتدال والوسطية في التعامل مع غير المسلمين، فلا يكون الخلاف في الدين أو المعتقد مؤدياً للعداوة والبغضاء، بل يكون الحوار أساساً للتعامل ﴿ **وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ** ﴾[1]، فلا بُدَّ من التعارف والتعايش والتعاون والتسامح، انطلاقاً من وحدة الأصل الإنساني، مع التأكيد على احترام الآخرين وتقديرهم.

- الاعتدال والوسطية في التجديد والاجتهاد من خلال الارتباط بأصول التشريع الإسلامي والاتصال بالعصر وعدم الانفصال عنه وضرورة معرفة أحواله، وذلك بمواءمة تطورات الحياة ومستجدات العصر؛ لتناسب المراد من التشريع في ذلك العصر، والانفتاح الحضاري وذلك بالأخذ من حضارات الأمم الأخرى بما لا يتعارض مع العقيدة والقيم والأخلاق الإسلامية، فنحن مع حوار الحضارات ولسنا مع صراع الحضارات.

- الاعتدال والوسطية في الأحكام الشرعية وذلك بتعظيم الأصول وتيسير الفروع، رفعاً للحرج، ومنعاً للغلوّ والتشدّد، اقتداءً بالنبي صلى الله عليه وسلم، كما جاء في الحديث عَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- أَنَّهَا قَالَتْ: **(مَا خُيِّرَ رَسُولُ**

---

(١) النحل:١٢٥.

اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إلا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا)[1]، وقوله صلى الله عليه وسلم: **(يَسِّرُوا وَلا تُعَسِّرُوا)**[2]، فالأمة الإسلامية تَمَيَّزَت عن غيرها من الأمم بالاعتدال والتوسُّط والبعد عن الغلوّ والتشدّد.

– الاعتدال والوسطية في تبليغ الدعوة الإسلامية وفق المنهج الرباني، واتباع الأسلوب القرآني القائم على الإثبات والاستدلال والإقناع، والمُعْتَمِد على الحكمة والموعظة الحسنة في معالجة مظاهر الغلوّ والتشدّد.

إن المجتمعات الإسلامية في العصر الحاضر تتبنى منهج الاعتدال والوسيطة وترفض الغلوّ والتشدّد، معتمدة على دعامتين أساسيتين هما: القرآن الكريم والسنة النبوية، كما أن الله سبحانه وتعالى منح هذه الأمة ما يمكنها من أن تكون أمة وسَطا بعيدة عن الغلوّ والتشدّد؛ حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ** ﴾[3]، وقد كانت أفعال الرسول صلى الله عليه وسلم وأقواله دعوة للاعتدال والوسطية وأبعد ما يكون عن الغلوّ والتشدّد، وهذا ما يتمسك به المسلمون في عصرنا الحاضر.

وعلى الرغم من هذه المظاهر التي تؤكد اعتدال الأمة الإسلامية ووسطيتها في العصر الحاضر فإنها تواجه بعض المخاطر والتحديات والمتغيرات في كل

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ١٨٩/٤ح ٣٥٦٠ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٢٥/١ ح ٦٩.

(٣) الأعراف: ١٥٧.

مناحي الحياة الدينية والعلمية والاجتماعية، ومن المعلوم أنه في السنوات الأخيرة برزت في المجتمع الإسلامي بعض ظواهر البُعد عن منهج الاعتدال والوسطية؛ فَنَمَا الغلوّ والتشدّد في الدين والذي أدى إلى الفرقة والفتن والصراع.

ومما لا شك فيه أنه لمواجهة الغلوّ والتشدّد والانحرافات الفكرية والسلوكية وما يترتب عنها من مخاطر، يجب الالتزام بالمنهج الأفضل والأعدل، وهو المنهج الوسط الذي أمر الله به، وجعله طريق أفضلية وشهادة لهذه الأمة على الأمم الأخرى.

ومن الجهود المبذولة في نشر مبادئ الاعتدال والوسطية ومحاربة الغلوّ والتشدّد في العصر الحاضر على أوسع نطاق :

– إقامة المؤتمرات في العديد من الدول العربية والإسلامية التي تدعو إلى ترسيخ مبادئ الاعتدال والوسطية ونشرها في المجتمعات الإسلامية .

– قيام مراكز البحوث والدراسات بإجراء دراسات للتعرف على العوامل المؤدية إلى الغلوّ والتشدّد ووضع آليات لمعالجتها.

– الدعوة للتعايش والتسامح مع غير المسلمين والحوار معهم، مع العلم أن الحوار المنشود لن يحقق نتائجه إلا إذا تجرَّد الإنسان من أنانيته، وأيقن أن الكون الفسيح يمكن أن يسع الجميع إذا خلصت النوايا وتضافرت الجهود؛ لبناء عالم يختفي منه العنف، وتُصان فيه الدماء، وتتوقف النزاعات والحروب .

– الاهتمام من وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة ببيان الوجه المشرق للإسلام ووسطيته ومحاربة العنف والغلوّ والتشدّد والانحراف الفكري.

مما سبق يتأكد لنا ممارسة المسلمين لمبادئ الاعتدال والوسطية عبر تاريخهم المشرق منذ عهد رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم ومن بعده عهد الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين حتى وقتنا الحاضر؛ حيث جاءت شهادات المسلمين وغيرهم مؤكدة على اعتدال المسلمين ووسطيتهم وتسامحهم مع غيرهم في جميع العصور، ونحن ملتزمون – إن شاء الله – بالسَّير على منهج الرسول

صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام – رضي الله عنهم أجمعين – بالمحافظة على منهج الاعتدال والوسطية، ورحم الله القائل:

عَلَيْكَ بِأَوْسَاطِ الأُمُورِ فَإِنَّهَا نَجَاةٌ وَلاَ تَرْكَبْ ذَلُوْلاً وَلاَ صَعْبَا

**

المبحث الثالث

الاعتدال والوسطية في التراث الفقهي

إن العبادات في الإسلام مبنية على الاعتدال والتوسط؛ لأن الشريعة الإسلامية هي خاتمة الشرائع السماوية وهي مشتملة على اليسر ورفع الحرج، وعند دراستنا لمصادر التشريع الإسلامي نجد أن شريعة الإسلام مبنية على اليسر لا على العسر، وعلى الاعتدال والوسطية، لا على التشدد والغلوّ، فالإسلام دين صالح لجميع الناس، ولكل زمان ومكان، فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها، والدين الإسلامي دين رحمة: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[1]، فالأحكام الشرعية في العبادات – كالصلاة والصيام والزكاة والحج – كلها قائمة على اليُسر والسماحة والتوسط والاعتدال؛ لتكون سهلة التطبيق والممارسة على مختلف الناس، في حال القوة والضعف، وفي وقت الإقامة والسفر، وفي حال الصحة والمرض، وفي سنِّ الشباب والشيخوخة.

لقد جاءت تشريعات الإسلام ملبية لكل حاجات الإنسان الروحية والمادية في توازن محكم دقيق، يُعطي للبدن حقه، كما يُعطي للروح حقها، فالإسلام يهتم بالفرد والمجتمع معاً؛ حيث يرى أن الفرد المُكرَّم هو أساس المجتمع الصالح، فيوليه اهتمامه، ويرى للمجتمع من الحقوق على الفرد، ما يحقق مصلحة مجموع الأفراد؛ حيث إنه يلتزم سلوكاً متوازناً في استيفاء الحقوق وأداء الواجبات.

المطلب الأول : وسطية الأحكام الشرعية في القرآن الكريم:

لقد ذكر القرآن الكريم الوسطية بمضمونها الفكري، وإيثار التوجه إليها في الأحكام الشرعية والعبادات في عدة مواضع، منها:

---

(١) الحج :٧٨.

١- قوله سبحانه وتعالى:﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾[١].

قال الشوكاني في تفسير الآية السابقة: (قيل معناه: لا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها، والأوّل أولى {وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ} أي الجهر والمخافتة المدلول عليها بالفعلين {سَبِيلًا} أي طريقاً متوسطاً بين الأمرين، فلا تكن مجهورةً ولا مخافتاً بها)[٢].

٢- قوله سبحانه وتعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾[٣].

قال ابن كثير في تفسير الآية السابقة: (وقوله تعالى: {وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ} الآية، أي ليسوا بِمُبَذِّرين في إنفاقهم، فيصرفون فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهليهم فَيُقَصِّرون في حَقِّهم فلا يكفونهم، بل عدلاً خياراً، وخير الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا) [٤].

فالآية الكريمة تتحدث عن وصف من أوصاف عباد الرحمن وما هم عليه من فضائل سامية؛ حيث تدعو إلى الوسطية في الإنفاق، فالذي يحرص على الانتماء للعبودية للرحمن عليه أن يتجنب الإسراف في إنفاق المال وأن ينأى عن التقتير، وأن يلتزم الطريق القويم بين هذا وذاك.

---

(١) الإسراء:١١٠.

(٢) فتح القدير للشوكاني ٣/٣٣١.

(٣) الفرقان:٦٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/٤٣٤.

٣- قوله سبحانه وتعالى:﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (١).

قال الشوكاني في تفسير الآية السابقة: (والمراد النهي للإنسان بأن يُمسك إمساكاً يصير به مُضَيِّقاً على نفسه وعلى أهله ولا يُوَسّع في الإنفاق توسيعاً لا حاجة إليه بحيث يكون به مُسْرفاً، فهو نهي عن جانبي الإفراط والتفريط ويتحصل من ذلك مشروعية التوسط، وهو العدل الذي ندب الله إليه:

ولا تَكُ فيها مُفْرِطَا أو مُفَرّطاً كلا طَرْفَيْ قَصْدِ الأمورِ ذَميمُ)(٢).

لقد صَوَّرت الآية الكريمة الشحيح بمن شُدّت يده بقيد إلى عنقه، والمُسرف كمن امتدت يده منبسطة بلا رابط ولا ضابط، ومن ذلك يتبين أن الإسلام هو دين الوسطية في الإنفاق والإمساك.

٤- قوله سبحانه وتعالى:﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾(٣).

قال ابن كثير في تفسير الآية السابقة: ({وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ} في الطعام والشراب، وقال ابن جرير: وقوله {إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ} يقول الله تعالى: إن الله لا يحب المُتَعَدِّين حَدَّه في حلال أو حرام

(١) الإسراء: ٢٩.

(٢) فتح القدير للشوكاني ٢٧٦/٣.

(٣) الأعراف:٣١.

الغالين فيما أحلَّ بإحلال الحرام أو بتحريم الحلال، ولكنه يحب أن يُحَلّل ما أحلَّ ويُحّرم ما حرَّم، وذلك العدل الذي أمر به)[1].

٥- قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ** ﴾[2].

قال ابن كثير في تفسير الآية السابقة: (وقوله: {**وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ**} أي امشِ مقتصداً مشياً ليس بالبطيء المُتَثَبِّط، ولا بالسريع المُفْرِط، بل عدلاً وسطاً بَيْنَ بَيْن)[3].

هذه المواضع القرآنية تُقدم لنا نماذج لتطبيق الوسطية في المجتمع الإسلامي، وهي إنْ دلَّت على شيء فإنما تدل على أن هذه الخِصّيصة التي عُرف بها الدين الحق، وأصبحت سمة للأمة الإسلامية ينبغي أن تظل سلوكية تحكم حياة المسلم، ويعتصم بها في كل ما يأتي وما يدع؛ لأنها كفيلة بتحقيق الخير له من جميع أطرافه، سواء في نفسه أم في أسرته أم في المجتمع الذي يعيش فيه.

المطلب الثاني: وسطية الاحكام الشرعية في السنة النبوية:

كما جاءت السنة النبوية زاخرة بالأحاديث النبوية الدالة على أن الأحكام الشرعية كلها قائمة على اليسر والسماحة والتوسط والاعتدال؛ لتكون سهلة التطبيق والممارسة على مختلف الناس، ومن هذه الأحاديث:

١- عن أنس بن مالك – رضي الله عنه- قال: **(جَاءَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا:**

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢٨٢/٢.

(٢) لقمان: ١٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٨٩/٣.

وَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ النَّبِيِّﷺ ؟ قَدْ غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا. فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِﷺ، فَقَالَ: "أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي")(١).

عند قراءتنا لهذا الحديث الشريف نجد أنه يعالج الغلوّ والتشدد بشكل مُقْنع، فقد كان الدافع وراء غلوِّ هؤلاء، أنهم رأوا اجتهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم في العبادة، على الرغم من أنَّ الله قد غَفَر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأَحَسُّوا أنهم دون رسول الله صلى الله عليه وسلم بكثير، وقد ظهر هذا من قولهم: وأين نحن من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟، وظنوا أنهم بتشددهم وغُلوِّهم سيكونون أكثر قُربًا من الله وتعبداً، فأزال النبي صلى الله عليه وسلم هذه الشبهة من تفكيرهم بقوله صلى الله عليه وسلم :" **إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**".

إن الخير في اتباع المنهج النبوي، لا في الغلوّ والتشدد، فالإسلام هو دين التوسط والاعتدال في جمعه بين مطالب الروح والجسد.

٢-عَنْ جَابِرِ بنِ عبد الله قَالَ: **(كَانَ مُعَاذٌ يُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّﷺ ثُمَّ يَأْتِي فَيَؤُمُّ قَوْمَهُ، فَصَلَّى لَيْلَةً مَعَ النَّبِيِّﷺ الْعِشَاءَ، ثُمَّ أَتَى قَوْمَهُ فَأَمَّهُمْ فَافْتَتَحَ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ فَانْحَرَفَ رَجُلٌ فَسَلَّمَ، ثُمَّ صَلَّى وَحْدَهُ وَانْصَرَفَ، فَقَالُوا لَهُ: أَنَافَقْتَ يَا فُلانُ، قَالَ: لا وَاللَّهِ، وَلآتِيَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَلأُخْبِرَنَّهُ. فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا أَصْحَابُ نَوَاضِحَ نَعْمَلُ بِالنَّهَارِ، وَإِنَّ مُعَاذًا صَلَّى مَعَكَ الْعِشَاءَ ثُمَّ أَتَى فَافْتَتَحَ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ. فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى مُعَاذٍ، فَقَالَ: "يَا مُعَاذُ أَفَتَّانٌ أَنْتَ، اقْرَأْ بِكَذَا وَاقْرَأْ بِكَذَا". قَالَ سُفْيَانُ: فَقُلْتُ لِعَمْرٍو إِنَّ أَبَا الزُّبَيْرِ، حَدَّثَنَا عَنْ جَابِرٍ، أَنَّهُ**

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٣/٧، ح٥٠٦٣.

قَالَ: "اقْرَأْ {وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا}. وَ{الضُّحَى}. {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى}. وَ{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى}". فَقَالَ عَمْرٌو نَحْوَ هَذَا)[1].

يظهر من الحديث السابق تَتَبُّع الرسول صلى الله عليه وسلم لأعمال الصحابة الكرام – رضي الله عنهم أجمعين–؛ حيث أمرهم باتباع منهج التيسير والاعتدال والوسطية، ونهاهم عن التعمُّق والتشديد، وألا يُطيل الإمام بالمصلين إطالة تشقّ عليهم، لأنه يؤدي إلى التنفير من صاحبه.

٣– عَنْ عَبدِ اللهِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ مُعَاذًا قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. قَالَ:(**إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ. فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ**)[2].

قال الإمام النووي: (وفيه أنه يحرم على السّاعي أخذ كرائم المال في أداء الزكاة بل يأخذ الوسط، ويحرم على ربّ المال إخراج شرّ المال)[3].

فهذه هي الوسطية الإسلامية بما توفره من عدل واعتدال.

٤– عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(يَا عَبْدَ اللَّهِ: أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ؟ فَقُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: فَلا تَفْعَلْ، صُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ، فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا. وَإِنَّ بِحَسْبِكَ أَنْ تَصُومَ كُلَّ شَهْرٍ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ**

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٣٣٩/١، ح ٤٦٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٥٠/١، ح١٩.

(٣) صحيح مسلم بشرح النوَوي ٢٠٦/١.

حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ صِيَامُ الدَّهْرِ كُلِّهِ. فَشَدَّدْتُ، فَشُدِّدَ عَلَيَّ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَجِدُ قُوَّةً، قَالَ: فَصُمْ صِيَامَ نَبِيِّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلام، وَلا تَزِدْ عَلَيْهِ. قُلْتُ: وَمَا كَانَ صِيَامُ نَبِيِّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلام؟ قَالَ: نِصْفَ الدَّهْرِ. فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يَقُولُ بَعْدَ مَا كَبِرَ: يَا لَيْتَنِي قَبِلْتُ رُخْصَةَ النَّبِيِّﷺ)[1].

قال الإمام ابن حجر: (فالظاهر أنه أمره بالاقتصار على ثلاثة أيام من كل شهر، فلما قال إنه يطيق أكثر من ذلك زاده بالتدريج إلى أن وصله إلى خمسة عشر يوماً، فذكر بعض الرواة عنه ما لم يذكره الآخر، ... قال النووي: معناه أنه كبر وعجز عن المحافظة على ما التزمه ووظفه على نفسه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فَشَقَّ عليه فعله لعجزه، ولم يعجبه أن يتركه لالتزامه له، فتمنى أن لو قبل الرخصة فأخذ بالأخف)[2].

فالغاية من التشريعات ليست هي الإعنات ولا المشقة، ولا المغالاة في الدين؛ لأنها تعارض التشريع الإسلامي، بل هي الالتزام بالاعتدال والوسطية، والابتعاد عن الغلوّ والتشدُّد.

٥- عَنْ أَنَسٍ – رَضيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَّ النَّبِيَّﷺ رَأَى شَيْخًا يُهَادَى بَيْنَ ابْنَيْهِ، قَالَ: **(مَا بَالُ هَذَا؟ قَالُوا: نَذَرَ أَنْ يَمْشِيَ. قَالَ: إِنَّ اللَّهَ –عَنْ تَعْذِيبِ هَذَا نَفْسَهُ- لَغَنِيٌّ.)** وَأَمَرَهُ أَنْ يَرْكَبَ[3].

قال الإمام ابن حجر: (قوله: (أن يركب) زاد أحمد عن الأنصاري عن حميد فركب، وإنما لم يأمره بالوفاء بالنذر إما لأن الحج راكباً أفضل من الحج ماشياً، فَنَذْر المشي يقتضي التزام ترك الأفضل فلا يجب الوفاء به، وإما لكونه عجز عن الوفاء بنذره وهذا هو الأظهر)[4].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٣٩/٣، ح ١٩٧٥.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر ٢٥٨/٤ – ٢٥٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ١٩/٣، ح ١٨٦٥.

(٤) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر ٩٥/٤.

لقد كان للرسول صلى الله عليه وسلم موقف واضح من نزعات الغلوّ والتشدُّد، فلما رأى–عليه الصلاة والسلام– هذا الشيخ يسير متحاملاً على قدميه بين ابنيه اللذين يحملانه ويساعدانه على الوقوف والخطوِ الضعيف، فقد أمره– عليه الصلاة والسلام– عندئذ بالركوب؛لأن الشريعة الإسلامية تدعو إلى التيسير والاعتدال والوسطية في جميع الأمور.

لذلك يتبين لنا أن إرهاق النفس وتحميلها فوق طاقتها بالمشي إلى الكعبة ليس من وسطية الإسلام، وإنما هو إفراط وغلو في الدين لا حاجة إليه.

٦– عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ– قَالَ:**(كَانَ رَسُولُ اللَّهِﷺ فِي سَفَرٍ فَرَأَى زِحَامًا وَرَجُلاً قَدْ ظُلِّلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ فَقَالُوا: صَائِمٌ. فَقَالَ: لَيْسَ مِنْ الْبِرِّ الصَّوْمُ فِي السَّفَرِ)**[١].

قال الإمام ابن حجر العسقلاني: (... ولذا قال الطبري بعد أن ساق نحو حديث الباب من رواية كعب بن عاصم الأشعري ولفظه "سافرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في حر شديد، فإذا رجل من القوم قد دخل تحت ظل شجرة وهو مضطجع كضجعة الوجع، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما لصاحبكم، أي وجع به؟ فقالوا: ليس به وجع، ولكنه صائم وقد اشتد عليه الحر، فقال النبي صلى الله عليه وسلم حينئذ: ليس البر أن تصوموا في السفر، عليكم برخصة الله التي رَخَّصَ لكم"... وفي الحديث استحباب التمسك بالرخصة عند الحاجة إليها، وكراهة تركها على وجه التشديد والتنطع)[٢].

إن التوجيه النبوي يؤكد أن عدم الأخذ بالرخص ليس من البرّ في شيء ؛ لأنه يخالف عدالة الإسلام ووسطيته ورفع الحرج الذي تميزت به الشريعة الإسلامية السمحة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٣٤/٣ ح ١٩٤٦.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر ٢١٧/٤ – ٢١٩.

٧- عَنْ عَوْنِ بْنِ أَبِي جُحَيْفَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: **(آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ سَلْمَانَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً ، فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكِ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا. فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا فَقَالَ له: كُلْ. قال: فَإِنِّي صَائِمٌ. قَالَ: مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ. قال: فَأَكَلَ. فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ. قَالَ: نَمْ. فَنَامَ. ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ. فَقَالَ: نَمْ. فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ قَالَ سَلْمَانُ: قُمِ الآنَ، فَصَلَّيَا. فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ. فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ" صَدَقَ سَلْمَانُ")**[١].

من خلال الحديث السابق وتوجيه النبي صلى الله عليه وسلم لهذا الصحابي، نتعلم وجوب الاعتدال والتوسط والتيسير على النفس وعدم التشديد عليها، لأن ديننا الإسلامي قد عُنِيَ عناية كبيرة برعاية الروح والجسد، فإن لنفسك عليك حقًّا، ولجسدك عليك حقًّا. وقال ابن حجر: (فيه جواز النهي عن المستحبات إذا خشي أنّ ذلك يُفضي إلى السآمة والمَلَل، وتفويت الحقوق المطلوبة الواجبة أو المندوبة الراجح فعلها على فعل المستحب المذكور)[٢].

٨- عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: **(جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُنِي وَأَنَا بِمَكَّةَ، وَهُوَ يَكْرَهُ أَنْ يَمُوتَ بِالأَرْضِ الَّتِي هَاجَرَ مِنْهَا، قَالَ: يَرْحَمُ اللَّهُ ابْنَ عَفْرَاءَ، قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أُوصِي بِمَالِي كُلِّهِ؟ قَالَ: لا، قُلْتُ: فَالشَّطْرُ؟ قَالَ: لا، قُلْتُ: الثُّلُثُ؟ قَالَ: فَالثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ، إِنَّكَ أَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ؛ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ فِي أَيْدِيهِمْ، وَإِنَّكَ مَهْمَا أَنْفَقْتَ مِنْ**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٣٨/٣، ح ١٩٦٨.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر ٢٤٩/٤.

نَفَقَةٍ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ، حَتَّى اللُّقْمَةُ الَّتِي تَرْفَعُهَا إِلَى فِيّ امْرَأَتِكَ، وَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَكَ فَيَنْتَفِعَ بِكَ نَاسٌ وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ يَوْمَئِذٍ إِلاّ ابْنَةٌ)[1].

يتبين من الحديث أن سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه– أثناء عيادة الرسول صلى الله عليه وسلم له في مرض اشتدَّ به، رَغِبَ في أن يتصدّق بكل ماله، لكنّ الرسول صلى الله عليه وسلم لم يرضَ بذلك، وأمره أن يتصدق بالثلث – والثلث كثير–، كما جاء في الحديث، وقال له: **(إِنَّكَ أَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ؛ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ)**.

وكان له ابنة واحدة، فعدل عن رأيه الأول إلى رأي الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يمثل التوسط في الإنفاق، والأخذ بزمام الأناة والرَّوِيَّة في كل الأمور، فلو تصدّق سعدٌ– رضي الله عنه– بالمال كله لأجحف بحق ابنته الوحيدة، ولو أمسك المال كلّه لأضر بجانب الفقراء، ولكنه حين توسط واعتدل، والتزم بجادة القصد والاتزان أعطى كلّ ذي حق، حقه وتحققت الوسطية في العبادة، وهي مطلوبة في كل مطالب الشرع الحكيم الذي لا يأمر بما لا تُطيقه العزائم، مصداقاً لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** ﴾[2].

٩– عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ– رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قَالَ: **(دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَإِذَا حَبْلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ السَّارِيَتَيْنِ، فَقَالَ: مَا هَذَا الْحَبْلُ؟ قَالُوا: هَذَا حَبْلٌ لِزَيْنَبَ، فَإِذَا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : لا، حُلُّوهُ، لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ)**[3].

[لقد بوَّب الإمام البخاري لهذا الحديث بباب (ما يكره من التشديد في العبادة).

قال ابن بطال: إنما يُكره ذلك خشية المَلال المُفضي إلى ترك العبادة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٣/٤ ، ح ٢٧٤٢.

(٢) المؤمنون: ٦٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٥٣/٢، ح ١١٥٠.

قال الإمام ابن حجر تعليقاً على الحديث: (وفيه الحث على الاقتصاد في العبادة، والنهي عن التعمق فيها، والأمر بالإقبال عليها بنشاط)](١).

يبين الحديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى عن إلزام النفس بما لم يوجبه الله سبحانه وتعالى تعبداً وتقرباً إليه، كما جاء في الحديث: أنَّ رَسولُ الله صلى الله عليه وسلم قَالَ: **(عَلَيْكُمْ مِنَ الْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ، فَوَاللَّهِ لاَ يَمَلُّ اللَّهُ حَتَّى تَمَلُّوا. وَكَانَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيْهِ مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ)**(٢).

فالتوجيهات النبوية في هذا الموضع كثيرة لا يتسع المجال لحصرها في هذا المقام، فالرفق والوسطية والاعتدال ديدنه صلى الله عليه وسلم في جميع الأمور.

إن التوسط والاعتدال مطلوب منّا في جميع مناحي الحياة، حتى نعيش حياة كريمة كما أرادها الله سبحانه وتعالى لنا، ومن المعلوم أن التشدد والغلوّ يُسيءُ إلى أصحابه وإلى المجتمع وإلى الأمّة كلّها، وحتى ننهض بحال الأمّة يجب علينا الاعتدال والتوسُّط في الأمور كلّها، وهذا أمرٌ منوط بحملة الدعوة والرِّسالة؛ لأنهم يستطيعون أن ينشروا الوعي بين المسلمين، وهذه هي مهمّتهم.

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٣/٤٤-٤٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ١/٥٤٢، ح ٧٨٥.

الخاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد: فأحمد الله تبارك وتعالى أن وفقني لإتمام هذا البحث: **(الاعتدال والوسطية في التاريخ الإسلامي والتراث الفقهي)**، وقد جاء هذا البحث في مقدمة وثلاثة مطالب وخاتمة، وقد توصلنا من خلالها إلى مجموعة من النتائج والتوصيات، أهمها:

أولاً: النتائج:

١- الاعتدال والتوازن والتوسُّط من الخصائص المهمة التي تميزت بها الأمة الإسلامية في دينها ومعتقداتها وعباداتها ومعاملاتها.

٢- وسطية الأمة الإسلامية تنبع من وسطية منهجها ونظامها، فهو منهج وسط لأمة وسط، فلا إفراط ولا تفريط، ولا غلوّ ولا تقصير.

٣- أكدت الشريعة الإسلامية الغرّاء على مبادئ الاعتدال والوسطية، كما نهت عن التشدُّد والغلوّ في جميع الأمور.

٤- الدين الإسلامي الحنيف مبنيٌّ على اليُسر والتيسير ورفع الحرج، وعلى الاعتدال والوسطية لا على الإفراط والتفريط، مُلَبٍّ لكل حاجات الإنسان الروحية والمادية في توازن محكم دقيق .

٥- الوسطية منهج حياة، تعنى الاعتدال في الاعتقاد والعبادة والسلوك، والالتزام بها يمثل سياجاً قوياً يحفظ الإنسان من الوقوع في براثن الغلوّ والتشدّد.

٦- النبي صلى الله عليه وسلم هو خير قدوة لأمته، في اتباع منهج الوسطية ونشره، فقد عالج -عليه الصلاة والسلام- كثيراً من مظاهر الغلوّ في عصره، وأرشدهم إلى سبيل الاعتدال والوسطية.

٧- الاعتدال والوسطية السمة الغالبة على العصور الإسلامية منذ بزوغ فجر الإسلام إلى وقتنا الحاضر.

٨- الغلوّ والتشدُّد في الدين ظاهرة غير مقبولة شرعاً، وقد حذرت الشريعة الإسلامية منه، وهو العائق الأول أمام تطور المجتمعات الإسلامية.

٩- التسامح الذي عامل به المسلمون غيرهم لم يُعرف له نظير في التاريخ، ولم يحدث أن انفرد دين بالسلطة ومنح مخالفيه في الاعتقاد كل أسباب البقاء والازدهار مثل ما صنع الإسلام، فالأخوة الإنسانية هي الأساس الذي تقوم عليه علاقات الناس؛ حيث إن الشريعة الإسلامية الغراء وضعت دستوراً للعلاقة بين المسلمين وغير المسلمين أيًّا كانت ديانتهم.

ثانياً: التوصيات:

١- تعزيز الدور الريادي للمؤسسات الإسلامية العريقة في نشر العلم والنور، والتي تُمثل مركز الإشعاع ومناط الاعتدال والوسطية.

٢- الاهتمام بإعداد الدعاة وتأهيلهم؛ ليقوموا بواجباتهم في نشر مبادئ الاعتدال والوسطية، والاهتمام بحقوق الإنسان الأساسية، وعلى رأسها الضرورات الخمس (الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال)؛ ضماناً لحماية أمن المجتمع.

٣- إبراز سماحة الشريعة الإسلامية في العلاقة مع غير المسلمين، وتأكيدها فيما بين المسلمين، والتي تتأسس على مبدأ وحدة الأصل الإنساني، وكرامة النفس البشرية، والتعارف والبر والقسط.

٤- حثّ أبناء الأمة الإسلامية على الاقتداء برسولنا صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام- رضي الله عنهم أجمعين-، وذلك باتباع منهج الاعتدال والوسطية في جميع الأمور الدينية: من عقيدة وعبادة ومعاملات؛ ليكونوا من الفائزين في الدنيا والآخرة.

٥- تعميم فقه الاعتدال والوسطية في جميع المؤسسات التعليمية، وتعريف الأجيال الشابة بالإسلام وحقائقه، وتوفير الوسائل المعينة على فهم مقاصده ومبادئه، حتى يكونوا مُحَصَّنين من كل فكر دخيل هدفه إسقاط هويتهم

الإسلامية وغرس الفكر المتشدّد في عقولهم، وذلك من خلال عقد ورش عمل شبابية وندوات حوارية بمشاركة المؤسسات الدينية والتعليمية والثقافية؛ للتوعية بمضمون الخطاب الإسلامي الوسطي.

٦- بيان النظرة الشرعية في نبذ الغلو والتشدّد من جهة، والتسيُّب والتحلل من جهة أخرى، وضرورة التزام الاعتدال والوسطية في كل أمر.

٧- مواجهة الغلوّ الفكري والانحراف العَقَدِي بنشر مبادئ الاعتدال والوسطية، التي تُرَسِّخ خيريّة الأمة، وتُذكِّر بوسطيِّتها، وكذلك التحذير من الغلوّ والتَّشَدُّدِ الذي يُمزِّق وحدة الأمة .

٨- التعاون الفعّال بين المؤسسات الإعلامية المختلفة والمؤسسات الدينية المختصة، لنشر مبادئ الاعتدال والوسطية في المجتمع، وتصحيح النظرة الخاطئة عن الإسلام في الغرب، وذلك من خلال إعداد البرامج المختلفة، وتخصيص المساحات الكافية في وسائل الإعلام المختلفة؛ لعرض الخطاب الإسلامي الوسطي بكل صوره وأشكاله.

٩- توثيق الصلة بين الجامعات ومراكز البحوث في البلاد الإسلامية ونظيرتها في الخارج بما يؤدي إلى توضيح الصورة الصحيحة والمشرقة للإسلام بالتأكيد على اعتداله ووسطيته، وذلك بالإفادة من أساليب التقنية الحديثة.

١٠- تأسيس قناة فضائية تُعنى بنشر الفكر الإسلامي الوسطي بلغات عالمية متعددة.

**

المصادر والمراجع

أولاً – القرآن الكريم وتفسيره :

القرآن الكريم.

١- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المعروف بتفسير البيضاوي، لناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، دار صادر – بيروت.

٢- التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور، ط الدار التونسية للنشر.

٣- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، للإمام الأكبر الدكتور/ محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع– القاهرة، سنة١٩٩٨

٤- جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري) لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ط دار الحديث – القاهرة، سنة ١٤٣١هـ –٢٠١٠م.

٥- الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) لأبي عبد الله محمد الأنصاري القرطبي، دار الكتب المصرية بالقاهرة، ط ٢، سنة ١٣٧٣هـ–١٩٥٤.

٦- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، لمحمد بن على بن محمد الشوكاني، ط المكتبة العصرية، بيروت، سنة١٤١٨هـ– ١٩٩٧م .

٧- القرآن العظيم للإمام عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، ط مكتبة دار السلام بالرياض، سنة ١٤١٤هـ –١٩٩٤م .

٨- محاسن التأويل، لمحمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

٩- مختصر تفسير ابن كثير، لمحمد على الصابوني، دار القرآن الكريم – بيروت، ط٤، سنة١٤٠٢هـ– ١٩٨١م.

١٠- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: المجلس العلمي بفاس، سنة ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

ثانياً- الحديث الشريف:

١١- الآحاد والمثاني، لأبي بكر بن أبي عاصم بن الضحاك بن مخلد الشيباني، دار الراية- الرياض، ط١، ١٤١١هـ-١٩٩١م.

١٢- التنوير شرح الجامع الصغير، لأبي إبراهيم محمد بن إسماعيل بن صلاح الحسني الصنعاني، مكتبة دار السلام- الرياض، ط١، ١٤٣٢هـ -٢٠١١م.

١٣- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه،(صحيح البخاري)،لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل ابن إبراهيم بن المغيرة البخاري، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ.

١٤- الجوهر النقي على سنن البيهقي، لأبي الحسن علاء الدين علي بن عثمان بن إبراهيم المارديني، دار الفكر.

١٥- السنن الكبرى، لأبي بكر أحمد بن الحسن بن علي بن موسى البيهقي، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، ط٣، ١٤٢٤هـ -٢٠٠٣م.

١٦- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم- (صحيح مسلم)، لأبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

١٧- سنن ابن ماجه، لأبي عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني، دار إحياء الكتب العربية.

١٨- سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير السجستاني، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت.

١٩- سنن النسائي، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي، مكتبة المطبوعات الإسلامية – حلب، ط ٢، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

٢٠- صحيح مسلم بشرح النووي، للإمام محي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي، راجع ضبطه وخرَّج أحاديثه وعلَّق عليه، أ. محمد محمد تامر، ط دار الفجر للتراث – القاهرة، سنة١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

٢١- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ط دار الريان للتراث – القاهرة، سنة ١٤٠٧هـ -١٩٨٧م .

٢٢- مصنف ابن أبي شيبة، لأبي بكر عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن أبي شيبة، مكتبة الرشد- الرياض، ط١، ١٤٠٩هـ.

ثالثاً- الكتب العلمية:

٢٣- إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، لمحمد بن شهاب الدين السيوطي، تحقيق: د.أحمد رمضان أحمد، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٢٤- الإسلام وأهل الذمة، لعلي حسني الخربوطلي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٣٨٩هـ- ١٩٦٩م.

٢٥- بدائع السلك في طبائع الملك، لأبي عبد الله محمد بن علي بن محمد الأصبحي الأندلسي، وزارة الإعلام – العراق، ط١.

٢٦- تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري)، لأبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري، دار التراث – بيروت، ط٢، ١٣٨٧هـ.

٢٧- ترتيب المدارك وتقريب المسالك، لأبي الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي، مطبعة فضالة – المحمدية – المغرب، ط١، ١٩٦٦م – ١٩٧٠م.

٢٨- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لأبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني الحنبلي، دار العاصمة، السعودية، ط٢، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

٢٩- الخراج، لأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد بن حبتة الأنصاري، المكتبة الأزهرية للتراث – القاهرة.

٣٠- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي النصر إسماعيل بن حماد الجوهري، دار العلم للملايين – بيروت، ط٤، ١٤٠٧هـ-١٩٧٨م.

٣١- سير أعلام النبلاء، لأبي عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ابن قايماز الذهبي، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٥هـ -١٩٨٥م.

٣٢- فتوح البلدان، لأحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري، دار مكتبة الهلال- بيروت، ١٩٩٨م.

٣٣- القاموس المحيط، لمجد الدين بن يعقوب الفيروزي آبادي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت، ط٨، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٣٤- قصة الحضارة، لول ديوارانت، دار الجيل – بيروت – لبنان، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

٣٥- لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن منظور الأنصاري الإفريقي، دار صادر – بيروت، ط١٤١٤،٣هـ.

٣٦- مجموع فتاوى ابن تيمية، لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن النجدي، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

٣٧- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، لأحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، المكتبة العلمية – بيروت.

٣٨- معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي، دار الفكر، ١٣٩٩هـ -١٩٧٩م.

٣٩- مفاهيم إسلامية، مجموعة من المؤلفين، منشورات وزارة الأوقاف المصرية، سنة ٢٠٠٨م.

٤٠- النهاية في غريب الحديث والأثر، لمجد الدين بن المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير، المكتبة العلمية – بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
٤١- وسطية الإسلام، لأحمد عمر هاشم، دار الرشاد، ط١، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
٤٢- الوسطية في الإسلام وأثرها في الوقاية من الجريمة، لعبد العزيز عثمان شيخ محمد، رسالة ماجستير، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، ٢٠٠٨م.

* * *